جامعة الأزهر
حولية كلية اللغة العربية
بنين بجرجا

التكرير الموضوعي في شعر البارودي "شكوى الحاسدين" و"طير الحَمام" أنموذجاً

الدكتور

فرحان محمد عمار حمد المطيري

الأستاذ المساعد بقسم الدراسات الأدبية
كلية دار العلوم جامعة الفيوم ـ جمهورية مصر العربية

العدد الخامس والعشرون
للعام ١٤٤٢هـ / ٢٠٢١م
الجزء الثامن

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية ٦٩٤٠/ ٢٠٢١م

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

بسم الله الرحمن الرحيم

التكرير الموضوعي في شعر البارودي
"شكوى الحاسدين" و"طير الحَمام" أنموذجاً

فرحان محمد عمار حمد المطيري

قسم الدراسات الأدبية ـ كلية دار العلوم جامعة الفيوم ـ جمهورية مصر العربية

البريد الإلكتروني : fma00@fayoum.edu.eg

الملخص

يدرس هذا البحث نموذجًا للموضوعات المتكررة في شعر البارودي. يعالجه معالجة فنية من جهة إشارات مفردات هذا النموذج ، ودلالات ذلك التكرار . وبالنظر إلى كثرة مفردات هذا الموضوع / التكرار فإن الباحث لجأ إلى الاختيار من المفردات الأكثر دلالة والأبرز ورودًا خلال النصوص الشعرية المدروسة. والنموذج المنتقى ينقسم إلى قسمين: معنوي ومادي. في القسم المعنوي دَرَسْنا موضوع (شكوى الشاعر مِن الحاسدين) ، وفي القسم المادي تخيرنا تكرير الشاعر مفردة الحمام بكل صيغها المتنوعة : المفرد والجمع والمرادف ونحو ذلك، متوجِّهًا إليه بالخطاب ، ساردًا حالته من الحنين أو البكاء ، أو شاكيًا إليه حاله في معاناة الشوق أو مطارحة الأسى جرّاء هجر الحبيب ، حليةً في مطلع القصيد أو تعبيرًا عن حالة وجدانية أو غير ذلك. وقامت الدراسة على عرض كل موضوع بشواهده ومناقشة تَشَكُّل تكراره وتنوعه ، والإشارات الفنية المستوحاة من تكرار كل موضوع كما سبق القول. ففي شكوى الشاعر من الحاسدين والحاقدين أدرك البحثُ أنها مرتبطةٌ بالحياة الاجتماعية الخاصة بالشاعر، وكثيرٌ منها ارتبط بحياته العسكرية. كما أن كثيرًا من طروحاتها جاء في سياق الاعتزاز بالذات والافتخار بالمواهب الفنية والخُلُقِيَّة عنده . وقد تنوعت مظاهرُ شكوى الحاسدين في الشواهد الشعرية ، ما بين تبشيعِ سلوكِ هؤلاءِ ، ورَدِّهِ إلى ضغائن النفسِ الدفينة ، وبين الدعاءِ الصريح عليهم ، وانتهاء بالطعن في أصولهم . وقد ظهر ارتباطُ هذا الموضوع المتكرر عند البارودي بعموم الأخلاق البشرية في قلة الوفاء في الخلان والأصدقاء، كما بدا ارتباطه بالظروف والأحداث السياسية التي

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

عاشها الشاعر.

وقد تطرق البحثُ في القسم الثاني من النموذج وهو تكرار ذِكْرِ (طير الحمام) في شعر الرجل ، إلى تنوع هذا الذِّكْر في مقامات وسياقات متعددة ، وهي الصبابة ، والطبيعة، والذِّكْرَى. كما ارتبط هذا التكرير بالتراث العربي الشعري على امتداد تاريخه؛ إذ كان الحديثُ عن الحَمام لدى البارودي واستحضار ذِكره في الشعر تعبيرًا عن أمور شعورية وفنية كثيرة يثيرها صوتُه أو حنينُه أو – كما يتصور الشعراءُ – بكاؤُهُ ! ، وذلك في مقامات الأسى أو الحب والحنين والشوق – كما ذكرنا آنفًا– أو تَذَكُّرِ الماضي الجميل في حياة الشاعر. وقد دَلَّ التنوعُ الواضحُ في تكرير ذِكر الحمام بسياقاته المختلفة ، على هيمنة الذات الشاعرة عند البارودي على مجرى النص الشعري في جوانب كثيرة منه. كما أشارت طروحاتُ هذه المسألة إلى مسحة رومانسية اتشح بها شعرُ البارودي في مقدماته الغزلية أحيانًا ، أو في متنه السردي أحيانًا أخرى.

الكلمات المفتاحية : البارودي – الشعر – الحديث – الكلاسيكية – التكرير – الموضوعي – الحَمَام – الشكوى – الحاسدين .

Thematic Recurrence in al-Baroudi's Poetry : "The Complaint of the Envious " and "The Pigeon" as a Model

Farhan Muhammad Ammar Hamad Al-Mutairi

Assistant Professor, Department of Literary Studies، Faculty of Dar Al Uloom, Fayoum University

Email: fma00@fayoum.edu.eg

Abstract

This paper studies a model of recurring themes in al-Baroudi's poetry. It is treated artistically in terms of the signs of the elements of this model, and the implications of that repetition. As a result of the large vocabulary of this topic/repetition, the researcher chose from the most significant and prominent vocabulary in the studied poetic texts. The selected model is divided into two parts: moral and material. In the moral section, we studied the topic: the complaint of the envious (i.e. the poet's complaint about those who think that they hate him and envy him and the unfaithful friends), and in the material section we were given the choice of the poet repeating the word "pigeon" in all its various forms: singular, plural, synonym and so on, addressing it, narrating his condition From nostalgia or crying, or complaining to him about his condition in the suffering of longing or sadness due to the abandonment of his beloved, whether it is an ornament at the beginning of the poem or an expression of an emotional state or something else. The study was based on presenting each topic with its evidence and discussing the formation of its repetition and diversity, and the technical conclusions inspired by the repetition of each topic as previously mentioned. In the poet's complaint about the envious and haters, the study realized the connection of this topic to the poet's private social life, and many of its aspects were related to his military life. Also, many of his examples came in the context of self-esteem and pride in his artistic and moral talents. The manifestations of the complaint of the envious have varied in the poetic evidence, beginning with the focus on the horrific behavior of these people, and returning it to the inner grudges of the soul, and between insulting and cursing them, and ending with defaming their lineage. And this recurring theme in al-Baroudi's

poetry was linked to the generality of human morals in terms of lack of loyalty among colleagues and friends. It also seemed related to the circumstances and political events experienced by the poet.

In the second part of the model, which is the repetition of the mention of (bird of pigeons) in Al-Baroudi's poetry, the research touched on the diversity of this mention in various places and contexts, namely love, nature, and memory. This repetition has also been linked to the Arab poetic heritage throughout its history. For Al-Baroudi's talk about the pigeon and its mention in poetry was an expression of many emotional and artistic matters provoked by his voice, his nostalgia, or - as the poets imagine - his crying! And that is in the places of sorrow, love, nostalgia and longing - as we mentioned above - or remembering the beautiful past in the poet's life. The apparent diversity in the repetition of the name of the bathroom in its different contexts indicated the dominance of the poetic self according to al-Baroudi over the current of the poetic text in many aspects of it. The treatment of this issue also indicated a romantic tinge with which al-Baroudi's poetry sometimes appears in his lyrical introductions, or in his narrative body at other times.

Keywords: Al-Baroudi - Poetry - Modern - Classicism - Recurrence - Thematic - Doves - Complaint − The Envious .

بسم الله الرحمن الرحيم

التقديم

لقد انشغلت أقلامُ الباحثين بشعر البارودي بوجه عام في دراسات متعددة ، تنوعت واختلفت جوانبها ومناهجها . وذلك بدءًا من درس مجموع شعره مضافًا إلى سيرة حياته بمختلف مؤثراتها في شعره ، وانتهاء بتناول عناوين فنية جزئية محددة في ذلك الديوان الشعري الكبير.

ومن أقدم الدراسات الجامعة التي تمثل الاتجاه الأول دراسة الدكتورة نفوسة زكريا سعيد : البارودي حياته وشعره ، في كلية الآداب جامعة الإسكندرية في العام ١٩٤٧م ، بإشراف الدكتور محمد مصطفى هدارة . وقد جاءت هذه الدراسة الرائدة في بابين كلّ منهما أربعة فصول ، وقد اختص الباب الأول بحياة الشاعر بمراحلها المختلفة ، وتناول الباب الثاني شعره . وفي الفصل الأول من الباب الثاني تحدثت الباحثة عن آثار البارودي الأدبية، والفصل الثاني عَرَضَ لحالة الشعر قبل البارودي، أما الفصل الثالث فقد ناقَشَ منهجَ البارودي في نقاط أربعة ، أولاها كانت السمات القديمة في شعر البارودي ، والثانية عن المعارضات في شعره ، والثالثة رَصَدَتْ السماتِ العصرية في شعره . وختمت المسألةُ الأخيرةُ هذا الفصلَ بالحديث عن الألوان المحلية في شعره. أما الفصل الرابع وهو الأخير من هذا الباب فقد درس الصناعةَ الشعرية عند البارودي. وبمراجعة هذا الباب وفحص مسائله تأكد لنا أن الباحثة قد أشارت إلى مسألة تكرار المعاني عند حديثها في الفصل الثالث من هذا الباب الثاني عن السمات القديمة في شعره . وجاء هذا الحديث مُشبهًا طرائق النقاد القدماء في استعراض المعاني التي يتأثر فيها الشاعرُ اللاحقُ بالسابق تأثرًا واضحًا وضوحًا يدفع البعضَ إلى اتهامه

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

بالسرقة الأدبية. وقد ألمحت الباحثةُ إلى حدوث هذا مع البارودي ، وأن البعض اتهمه بانتحال معاني القدماء[١]. لكنها لم تفرد مسألة من هذه المسائل المكررة بالدراسة والتحليل ، وهذا يتوافق مع منهجها الذي يأتي على دراسة شعر الرجل كله. ومن الطبيعي أن يكون تناولُها عامًّا حتى يتسنى لها الإحاطة في الدرس الشعري. وقد انتظرتُ أن تشير إلى "طائر الحمام" – وقد تكرر بصورة لافتة في شعر البارودي ، وهو ضمن موضوعنا – عند استعراضها لأثر الثقافة العربية القديمة في ألفاظه ومعانيه ، ذلك الأثر المتمثل في ترديده بعض أسماء الأماكن والنبات والحيوان ، فلم تفعل[٢] . ولم نجد ذكرًا لذلك إلا ذكرًا عابرًا ضِمنًا غيرَ مخصوص بذاته، وذلك لدى حديث الباحثة عن البناء التقليدي للقصيدة في شعر البارودي ، وتحديدًا لدى ذكرها المقدمة الغزلية التقليدية[٣]. وهذا ما أشرنا إليه في موضعه من البحث ، عند تناولنا توظيف ذِكْر الحمام لمواساة الذات في مقام الصبابة.

وبخلاف هذه الدراسة تعددت البحوثُ الأكاديمية التي تناولت الشق الموضوعي في شعر البارودي، غير أنها جميعًا لم تفرد موضوعَ دراستنا ببحث مستقل أو متعمق، بل لم تقع عليه مَلمحًا تكراريًّا ضمن موضوعات شعر البارودي تبرزه وتشير إليه، وربما ذَكَرَهُ بعضُها في سياقات تقليدية جزئية ، كالتشبيه ونحوه. وهذه الدراسات هي :

١- يراجع: البارودي حياته وشعره – ص ٣٠٧ ،حيث التشابه بينه وبين الطغرائي في بيت شعر من قصيدة لامية.

٢- يراجع : السابق ص٣٠٨-٣٠٩.

٣- يُراجَع : السابق ص ٣١٧- ٣١٨.

١- المرأة في شعر البارودي -حولية كلية الآداب جامعة الزقازيق ٢٠١٠م- بدر الدين سليمان أحمد .

٢- الذاتية في شعر البارودي - ماجستير بجامعة طيبة بالمدينة المنورة - عام ٢٠١٣م - طلال عابد عبدالله المغذوي.

٣- الفتوة في شعر البارودي - الجامعة الأردنية - ٢٠٠٣م - سميح محمود إسماعيل .

٤- الحكمة في شعر البارودي - كلية الألسن جامعة عين شمس - ٢٠٠٧م - عبد المرضي زكريا خالد.

٥- الكلاسيكية في شعر البارودي - جامعة أم درمان - ماجستير - عام ٢٠٠٠م - معز صديق محمد الإمام .

٦- الرثاء في شعر البارودي - كلية الدراسات الإسلامية بالمنصورة - جامعة الأزهر - ١٩٨٩م - مصطفى البسطويسي.

٧- الهجرة في شعر البارودي - مجلة منار الإسلام - الهيئة العامة للشئون الإسلامية والأوقاف --٢٠١٤م - إبراهيم الحمدو العمر.

٨- الوطنية في شعر البارودي - كلية اللغة العربية بإيتاي البارود - جامعة الأزهر- ٢٠٠٠م - رزق محمد داود .

٩- الغربة والحنين في شعر البارودي - جامعة نايف للعلوم الأمنية بالسعودية - ٢٠٠٣م - محمد أمين أبوبكر .(مقالة في ٤ صفحات).

١٠- الحس الوطني في شعر البارودي - ماجستير - جامعة الزعيم الأزهري بالسودان - ٢٠٠٣م - شرحبيل المحاسنة .

❋ ❋ ❋ ❋ ❋ ❋

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

أمَّا دراستنا هذه فإنَّها تتناول ظاهرةَ التكرير في شعر البارودي في الجانب الموضوعي منها ، من خلال موازنة همزيةٍ له بقصائد أخرى من شعره. إذ لوحظ في شعر الرجل إيثارُه عدة مسائل فكرية أو شعورية أو مادية يلح عليها ويعيد ذكرها وتكريرها في سياقاتها المعهودة في الشعر العربي قبله ، أو يطوعها لسياقات مثيلة أو مختلفة خاصة به . وعند التأمل نجد عددًا لا بأس به من تلك الأفكار أو الذوات المادية مذكورة أو مستعملة في أشعار القدماء ، يستقيها البارودي ويعيد تَمَثُّلَها في شعره. وعَمَلُنا في هذه الدراسة هو أن نصل الموضوعات التكرارية في قصيدته الهمزية – حول أيامه بالجيزة[٤] – بمثيلاتها في أشعار ديوانه ، بقطع النظر عن كَوْن تلك الموضوعات أو الأفكار تليدةً مأثورة عن الشعر القديم أو طارفةً أفرزتها أحداثُ الحياة في شعر البارودي. ثُمَّتَ أن نستنبط ما يمكن أن يكتنَّ وراء ذلك من دلالة فنية أو موضوعية. تلك هي مشكلة الدراسة وسؤالها الأساس.

يُضاف إلى ذلك أن بعض الباحثين قد ذهب إلى أن الاهتمام الفني عند البارودي قد انصبّ على جانب الصياغة الشعرية على حساب المعنى الذي لم يجد عنده سعيًا إلى الابتكار فيه ؛ " فَتَناوَلَ معانيَ مطروقةً مألوفة ، ثم لم يلبث أن أجهدها بالتكرار حتى فقدت ما فيها من جمال في كثير من الأحايين"[٥]. فهل حقًّا ظهرت تلك المعاني المكررة خِلْوًا من الجمال في كثير من الأحيان؟!... هذه بقية السؤال !

٤- ومطلعها : غادِ النَّدَى بالجيزة الفيحاءِ # واحْدُ الصَّبُوحَ بِنَغْمَة الوَرقاءِ . بديوان البارودي- تحقيق/علي الجارم ومحمد شفيق معروف-دار العودة- بيروت ، ١٩٩٨م ، ص٤٢- ٤٥.

٥- البارودي حياته وشعره – د.نفوسة زكريا – مؤسسة البابطين للإبداع الشعري – ١٩٩٢م – ص ٣٨٩.

ولإيثار القصيدة الهمزية المشار إليها منطلقًا لهذه الدراسة بواعثُ عدةٍ أهمُّها أنها كانت النموذج الذي لفت نظر الباحث عند تتبع المعالم التراثية في الفن الشعري عند البارودي ضمن قراءات خاصة لديوانه ، فقد جَمَعَتْ في هذا المجال الفخر والحب والذكرى والخمر، وامتازَتْ فيها جميعًا باستلهام الرسم القديم في التعبير والتصوير والتوظيف الفني لمفرداتٍ وذواتٍ طبيعية وحيوية تناولها القدماء في أشعارهم مرارًا . ومن بواعث انتقائها أيضًا أنها " تضج بالشكوى من الزمان والحساد وإخوان السوء"(٦)، وهو الشق الأول من موضوع هذا البحث .

وبالنظر إلى إدراكنا حجمَ التكرير الموضوعي ووضع أيدينا على نماذجَ كثيرة منه قد تصل في بعض المسائل إلى ستة عشر نموذجًا ، كان لابد من اللجوء إلى فكرة انتقاء العناصر الأكثر دلالة والأقوى وصفًا للظاهرة الفنية في شعر هذا الرجل الذي يعد رائدَ هذا الفن وباعثَ نهضتِهِ في العصر الحديث . ولهذا فإننا سوف نقتصر في المسائل المتخيَّرة في هذا البحث على عدد محدد من مواضع التكرار يفي بغرض الاستدلال على الظاهرة حتى نُحْكِمَ طرح القضية دون ترهل أو إسراف . كما سنكتفي بمعالجة مسألتين نرى أنهما أكثرُ طرحًا وأقوى دلالةً وأشدّ إلحاحًا في شعر البارودي ، وهما : شكوى الحاسدين ، وطائر الحمام . ونترك بقية المسائل لدراسة أخرى موسعة نقوم بها أو يضطلع بها غيرُنا من الباحثين في قابل الأيام بحول الله تعالى .

٦- البارودي رائد الشعر الحديث - د.شوقي ضيف - دار المعارف بالقاهرة - الطبعة الرابعة (د.ت.)- ص٦٣.

ويأتي اختيار(شكوى الحاسدين) بحسبانه نموذجًا للتكرير الموضوعي على المستوى المعنوي، وفي الجهة المقابلة يأتي التكرير على المستوى المادي من خلال اختيار تكرير ذِكْر (طائر الحمام) وتوظيف ذلك في إطار فنّي قديم أو جديد.

❊ ❊ ❊❊ ❊

الدِّراسَة

١- شكوى الحاسدين

هذا الموضوع يتكرر عنده في صور معنوية مختلفة نذكر منها: عداوة الناس ، وقلة وفاء الصحاب ، وغدر المقـرّبين، ونحـو ذلـك ... يقـول البارودي في همزيته المشار إليها(٧):

لكنني غرض لأسهم حاسـد	واري الجوانح من لهيب عِدائي
أنـا في زمان غـادر ومعاشـر	يتـلونـون تـلوُّنَ الحـربـاء
أعداءُ غيبٍ ليس يسلم صاحبٌ	منهـم ، وإخوة محضرٍ ورخاء
أقبح بهم قومًا بلوتُ إخاءهم	فبلوتُ أقبـحَ ذمـةٍ وإخـاءِ
قد أصبحوا للدهر سُبَّةَ ناقمٍ	في كل مصدر محنـةٍ وبـلاءِ

فهو في هذه الأبيات يرسم صورة لنفسـه المسـتهدفة مـن هـؤلاء الحاقدين المتلونين أعداء الفضيلة التي يمثلها هو كما يشير في بيت آخـر من هذه القصيدة :

مِنْ غَيْـرِ مـا ذَنْـبٍ جَنَيْتُ وإنَّمـا بُـغْضُ الْفَـضِيـلَةِ شِـيـمَـةُ الْجُـهَـلاَءِ

ثم يلوم الزمان والناس غير المخلصين ، و يُسفِّه مسلكَهم ويُقبِّحهم في شعره.

ومع هذا فإنك قد تجده مُناقضًا نفسَه إذ يتهم الزمانَ بالغدر ، ويجعلـه سبب نكبته بأصدقائه المتلونين. لنراقب المعنى في البيتين الآتيـين- فـي

٧- ديوان البارودي - سابق ص٤٤.

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

موضع آخر من شعره- حيث يُبرئُ الدهر من ذلك، صنيعَ الشاعر القديم من قبل... يقول البارودي(٨):

أَرَى كُـلَّ حَيٍّ يَـظْلِمُ الـدَّهْـرَ جُهْـدَهُ وَلَسْتُ أَرَى لِـلدَّهْـرِ فِي عَـمَـلٍ ذَنْبَـا
إِذا ساءَ صُنْعُ الْمَـرْءِ ساءَتْ حَيَـاتُـهُ فَمَـا لِصُرُوفِ الـدَّهْرِ يُـوسِعُها سَبًّا ؟

ويكرر الفكرة ذاتها – انعدام إخلاص المقربين – في قصيدة على رويِّ القاف يُعَرِّض فيها برؤساء الجند ، ثم يعدِّد الصفات نفسها : الخداع والنفاق والتلوّن والغدر ، لكنه – ونتيجة لضيقه بهؤلاء – يزيد فيطعن في أصولهم ويرميهم بالجهل والفسق وأخلاق الصبيان ... يقول(٩):

مَعَـاشِـرُ سـادُوا بِـالنِّفَـاقِ وَمَـا لَهُمْ أُصُـولٌ أَظَـلَّتْهَـا فُـرُوعٌ بَـوَاسِـقُ
فَـأَعْلَمُهُمْ عِنْـدَ الْخُصُـومَةِ جـاهِـلٌ وَأَتْقَـاهُمُ عِـنْـدَ الْعَـفَـافَـةِ فَـاسِقُ
طَـلاَقَـةُ وَجْـهٍ تَحْتَهَـا الْغَيْظُ كَـاشِـرٌ وَنَـغْمَـةُ وُدٍّ بَـيْنَهَـا الْغَـدْرُ نَـاعِـقُ
وَأَخْـلاَقُ صِـبْيَـانٍ إِذَا مـا بَـلَوْتَهُـمْ عَلِمْتَ بِأَنَّ الْجَهْلَ فِي النَّاسِ نَافِقُ
تَـعَلَّمْـتُ كَـظْمَ الْـغَـيظِ فِـيهِـمْ وَإِنَّـهُ لَـحِلْمٌ وَلَـكِنْ لِـلْحَفِـيـظَةِ مَـاحِـقُ

٨- المصدر نفسه ص٨٢ . والمشار إليه عند الشاعر القديم هو البيت المشهور : نعيب زماننا والعيب فينا...إلخ ويقول المتنبي أيضا : ألا لا أرى الأحداثَ حمدًا ولا ذمّا # فمـا بطشـها جهلًا ولا كَفُّها حِلْما .

٩- ديوان البارودي ص ٣٧٧ .

وفي همزية أخرى له يكرر الفكرة ذاتها – شكوى الحاقدين – ويحذر من الناس بوجه عام ، ويرى أن أكثرهم أعداء[١٠] :

لا تَخَلْ نَمَّةَ الْوُشَاةِ صَلاحًا ... فَهْيَ داءٌ تَدْوَى بِهِ الْحَوْبَاءُ

ومِنَ النَاسِ مَنْ تَراهُ سَلِيمًا ... وَبِهِ لِلْحُقُودِ داءٌ عَيَاءُ

فاحْذَرِ النَاسَ ما اسْتَطَعْتَ فإنَّ النـ ... ـاسَ إلاَّ أَقَلُّهُمْ أَعْدَاءُ

إنها إذن مسألة واقعية عاشها واكتوى بنارها ، فهاهو يكرر ذاك التعميم مرة ثانية ، ولكن بسببٍ من حدث واقعي جلل هو تخاذل رؤساء الجند الذين كانوا تحت إمرته في حربه ضد الإنجليز بالقصاصين؛ الأمر الذي جعله يذكر خداعهم ويتهمهم بالنفاق... يقول ، في سياق فقدان الثقة بمخالطيه[١١]:

لِأَيِّ خَلِيلٍ في الزَّمَانِ أُرَافِقُ ... وَأَكْثَرُ مَنْ لاَقَيْتُ خِبٌّ مُنَافِقُ ؟

بَلَوْتُ بَنِي الدُّنْيَا فَلَمْ أَرَ صَادِقًا ... فَأَيْنَ لَعَمْرِي الأَكْرَمُونَ الأَصَادِقُ ؟

ويبدو أن الرجل كانت فجيعته في أصدقائه المقربين ! فهو في موضع آخر ينعى على صديق له سلوكَه المشين ، وتمتلئ نفسه عليه حدَّ الاختناق فيدعو عليه بالسوء[١٢]:

١٠– نفسه ص٤٨.والنَّمَّةُ واحدة النَّمّ وهو الإفساد بين الناس بطريق نقل الكلام السيئ بينهم، والحوباء: النفس.

١١– نفسه ص ٣٧٦ . وراجع ص ٦٤٧ الأبيات أول الصفحة ، من قصيدة نونية ، يحكي عن خيانة الأصدقاء.

١٢– نفسه ص ٥٠ .

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

وصَـاحِبٍ كَهُمُـومِ النَّفْسِ مُعْتَـرِضٍ ... مـا بَيْـنَ تَـرْقُـوَةٍ مِـنِّي وأَحشـاءِ

إنْ قَـالَ خَيْـرًا فَعَـنْ سَهْـوٍ أَلَـمَّ بِـهِ ... أَوْ قَـالَ شَـرًّا فَعَنْ قَصْـدٍ وإمْضَـاءِ

لا يَفْعَـلُ السُّـوءَ إلَّا بَعْـدَ مَقْـدَرَةٍ ... ولا يُـكَـفْـكِفُ إلَّا بَـعْـدَ إيـذاءِ

عـاشَـرْتُـهُ حِقْبَـةً مِنْ غَيْـرِ سَـابِقَـةٍ ... فَكَـانَ أَقْتَـلَ مِـنْ داءٍ لِـحَـوْبـاءِ

يَـبْـغِـي رِضـايَ وقَـدْ أَوْدَى بِـرُمَّـتِـهِ ... وكَيْفَ يَحْيَا صَرِيـعٌ بَعْدَ إيـداءِ ؟

لا بـارَكَ اللهُ فـيـهِ حَـيْـثُ كَـانَ ولَا ... جَـزَاهُ عَـنْ فِـعْـلِهِ إلَّا بـأَسْـواءِ

وإذا كان الدعاء على الصديق الشرير – إن سمح التعبير – قد يكـون جَرَّاءَ موقفٍ شخصيّ في علاقة الشاعر به ، فإن غير الأوفياء مـن الجنـد الذين أسلموه وفروا عنه يستحقون جامَ الغضـب ولَفْـحَ الـدُّعاء ؛ لأنهـم بصنيعهم هذا خذلوا الوطن كله ولم يخذلوه هو وحده! فقد عاهـدوه علـى الثبات في ميدان القتال ، وأقسموا على ذلك بأيمان تُحرِّم زوجاتِهم عليهم في حال عدم الوفاء بها ... تأمل كيف يقول ويشرح[١٣] :

فَتَبًّـا لَـهُمْ مِـنْ مَعْشَـرٍ لَـيْسَ فِـيهِـمُ ... رَشِيـدٌ وَلَا مِنْهُمْ خَـلِيـلٌ مُصَـادِقُ

ظَـنَنْتُ بِهِـمْ خَيْـرًا فَـأُبْتُ بِحَسْـرَةٍ ... لَهَـا شَجَنٌ بَيْنَ الْجَـوَانِـحِ لَاصِقُ

فَيَـا لَيْـتَنِي رَاجَعْتُ حِلْمِي وَلَمْ أَكُنْ ... زَعِيمًـا وَعَـاقَـتْنِي لِـذَاكَ الْعَـوائِـقُ

هُمْ عَـرَّضُـونِي لِلْقَنَـا ثُمَّ أَعْـرَضُـوا ... سِرَاعًا وَلَمْ يَطْرُقْ مِنَ الشَّرِّ طَارِقُ

١٣- نفسه ص ٣٧٨.

وَقَـدْ أَقْسَمُـوا أَلَّا يَـزُولُـوا فَمَـا بَـدَا سَنَـا الْفَجْـرِ إِلَّا وَالنِّسَـاءُ طَـوَالِقُ

وفي سياق التغافل عن فعل الحاسد ، وترك الاهتمام بأحقاده ودسائسه ، يعتزل الشاعرُ الناسَ جميعًا ليسلم سَمْعُه وقلبُه وذاتُه مما يقولون عنه ، وإنه ليعرف ما يفترون من ورائه لكنه يسلك سبيل التغافل الذي يريحه ويغيظ الأعداء ... شكوى الحاسدين نفسها يعيدها ويكررها ... فيقول[١٤] :

قَـدْ كَفَـانِي بُعْـدِي عَنِ النَّـاسِ أَنِّي فِـي أَمَـانٍ مِنْ غِـيبَـةِ الْـمُغْتَـابِ

فَلْيَقُـلْ حَـاسِـدِي عَـلَيَّ كَـمَـا شَـا ءَ فَسَمْعِي عَنِ الْخَنَـافِي احْتِجَـابِ

لَـيْسَ يَـخْـفَـى عَـلَيَّ شَـيْءٌ ولَـكِـنْ أَتَغَـابَى والْـحَـزْمُ إِلْفُ الـتَّغَـابِي

ولعل هذه الفكرة تحمل لَمْحًا من الشعر القديم ، حيث تعرض سلوك الشاعر إزاء الحاسدين وأفعالهم ، هذا السلوك الأمثل الأحزم المتمثل في إهمالهم وترك الإصغاء لهم ، بل ترك التجاوب معهم فيما يقولون مع العلم به . وهي تشبه إلى حدٍّ ما الإشارة إلى جدوى الصبر على الحسود وتركه يأكل نفسه مثل النار... مما ورد في بيتي ابن المعتز المشهورَيْن إذ يقول[١٥]:

اصبرْ على مَضَض الحَسُود فإنَّ صبرَكَ قاتلُهْ

فالنارُ تأكلُ بعضَها إن لم تجد ما تأكلُهْ

١٤- نفسه ص ٦٩ .

١٥- مثلًا : مفتاح العلوم للسكاكي – دار الكتب العلمية- بيروت – الطبعة الثانية ١٤٠٧ هـ – ٣٤٦/١.

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

وقد يبلغ الحسود في حسده وضيق الشاعر به أن يُطالب بحرقه في عينيه، وذلك حين يفتخر الشاعر بأصله العربي وخصاله الحميدة المستمدة من ذلك الأصل.. ويتحداه سائلًا ما الذي تراه فينا غير هذه الشمائل .. استمع لمقولته(١٦):

فَاكْوِ الْحَسُودَ بِنَاظِرَيْهِ وَقُلْ لَهُ : إِنْ كُنْتَ تَجْهَلُنَا فَكَيْفَ تَرَانَا ؟
إِنَّا إِذَا مَا الْحَرْبُ شَبَّ سَعِيرُهَا نَحْمِي النَّزِيلَ وَنَمْنَعُ الْجِيرَانَا

ولا تخلو مسألة الحسد التي يشتكيها من أن تكون بواعثُها حقيقيةً ، أعني أمورًا يُحْسَدُ عليها مِثْلُه ! ، وقد ظل يفتخر بهذه الأمور على امتداد شعره . إذ إنَّ إحساسه " بالعظمة وإعجابه بنفسه لم ينبعا من فراغ ... بل هما مبنيان على حقائق شاهدها الجميع حتى حسدوه عليها ... يقول :

وأصبحتُ محسودَ الجَلال كأنني ∴ على كل نَفْسٍ في الزمان أميرُ "(١٧)

وفي مواطن أخرى من شعره يذكر هذه المسألة في سياق العتاب والاستبراء من الذنب ، والدفاع عن النفس ضد ما يُظَنّ فيه بإثم ... والنمام والحاسد كلاهما واحد في حالات كثيرة ، فهو الذي يفتري الباطل على المحسود ويُوغِر صدورَ أصفيائه عليه ... راقبْ الشاعرَ هنا وهو يعاتب صديقه الحميم على منحه النَّموم (النَّمَّام) فرصةَ للوشاية وعدم صدّه منذ

١٦- ديوان البارودي ص ٦٦٢ .

١٧- البطولة والقيم الإسلامية في شعر البارودي - النوراني عبدالكريم كبور- أطروحة دكتوراه ٢٠٠٦م/١٤٢٦هـ-كلية اللغة العربية - جامعة أم درمان - السودان - ص ٣٠.

البداية ... ويقول إنه لا يلوم على الواشي/الحاسد بقدر ما يلوم على الصديق الذي صدّقه فيما قال[١٨]:

أَلَيْسَ مِنَ الْعَدْلِ أَنْ تَسْمَعَا ؟ فَأَشْكُو إِلَيْكَ نَمُوماً سَعَى
أَتَاكَ فَأَغْشَيْتَهُ مَنْزِلاً رَحِيباً وَأَرْعَيْتَهُ مِسْمَعَاً
فَأَبْدَعَ مَا شَاءَ فِي فِرْيَةٍ تَأَنَّقَ فِي صُنْعِهَا وَادَّعَى
وَلَا وَحِفَاظِكَ وَهْوَ الْيَمِيـ ـنُ مَا حُلْتُ عَنْ عَهْدِكُمْ إِصْبَعَا
وَلَيْسَ مَلَامِي عَلَى مَنْ وَشَى وَلَكِنْ مَلَامِي عَلى مَنْ وَعَى

وتظل فكرة الحساد تلح على الشاعر حتى تنغص عيشه وتؤرق حياته؛ وتصل وطأتُها الشديدةُ إلى حد لا يستطيع معه الحياة بدون دفع هؤلاء بعيدًا عنه ، فينظر فلا يجد مغيثًا إلا جبار السموات والأرض ، فيجأر إليه طالبًا الغوث والخلاص[١٩]:

إِلَى اللهِ أَشْكُو أَنَّنِي بَيْنَ مَعْشَرٍ سَواءٌ لَدَيْهِمْ طَيِّبٌ وخَبِيثُ
لَهُمْ أَلْسُنٌ إِنْ رُمْنَ أَمْراً بَلَغْنَهُ مِنَ النَّفْسِ مَصْنُوعٌ لَهُنَّ حَدِيثُ
بَرِمْتُ بِهِمْ حَتَّى سَئِمْتُ مَكَانَتِي وَأَنكَرْتُ طِيبَ الْعَيْشِ وَهْوَ دَمِيثُ[٥]
إذا لم يُغِثْنِي اللهُ مِنْهُمْ بِفَضْلِهِ فَمَا لِيَ بَيْنَ الْعَالَمِينَ مُغِيثُ

١٨- نفسه ٣٢٥- ٣٢٦ .
١٩- نفسه ص ٩٧ .

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

ومن هذه الاستغاثة الشعرية وغيرها " يتضح أنّ الشاعر يعاني من أخلاق الآخرين... فهو في موقف عصيب، لا يزول إلا بزوال المسبب، وتأزمه ناجم من كونه قد فقد في وطنه مجمل العلاقات الاجتماعيّة ذات الرابط الحميمي، فهو قلق، متألم، وغير مستقرّ ... كما أنّ تأزمه ناجم من خلل في طبيعة صلة الأفراد بالشاعر، إذ يتبع الأفراد سلوكًا اجتماعيًّا مخالفًا لسلوكه، يعود عليه بالضرر والأذى"(٢٠).

ولا يخفى أن الخل الوفي في عُرف العربي القديم لا وجود له ، وأنه من المستحيلات الثلاثة المعروفة عند العرب(٢١). ولا ريب في أن البارودي يدرك ذلك تمامًا ، فهو الذي طالع ذلك التراث مطالعة واسعة ، واستقاه كثيرًا مما جرى به من معانٍ وتعابير وصور وأمثال ونحو ذلك ، ثمت وظفها لخدمة أغراض شعره والتعبير عن تجاربه الذاتية ، وأمتع به قراء العربية منذ ظهوره ، وعلى امتداد العصر. وإن هذه السمة – الطابع التراثي– تعد من أبرز سمات مدرسته الشعرية . وبخاصة أن أسلوب هذه المدرسة لم يتطلب "حصر الشاعر في نطاق الأغراض التي كان يعبر عنها هذا الأسلوب

٢٠– ثنائية الأنا والآخر في شعر محمود سامي البارودي – حامد الرواشدة – مجلة دراسات العلوم الإنسانية والاجتماعية – الناشر : الجامعة الأردنية / عمادة البحث العلمي – مج٤٤– ع٢ – ص١٣٤.

٢١– هي: الغُول والعنقاء والخل الوفي. الأولان خرافيان ، أضيف الثالث لهما لندرة وجوده بين الناس في ظنهم وفي كتاب: نفحة اليمن فيما يزول بذكره الشجن – لأحمد بن محمد الأنصاري الشرواني – مطبعة التقدم العلمية بالقاهرة – الطبعة الأولى ١٣٢٤ هـ – ص٢٠١ ، يقول صَفِيُّ الدين الحِلِّي :

لما رأيت بني الزمان وما بهم ... خلّ وفيّ للشدائد أصطفي
أيقنت أن المستحيل ثلاثةٌ ... الغول والعنقاء والخلّ والوفي

في العصور القديمة ، بل إن التزام منهج القصيدة العربية ، واستخدام بعض الصور القديمة، والألوان البدوية الصحراوية نفسها ... لم تَحُلْ بين هذا الأسلوب ، ونَقْلِ كُلِّ ما أراد الشاعرُ المحافظ أن يُعَبِّر عنه من تجاربه الذاتية"[٢٢]. وهو هنا يبحث عن الخِلِّ الوَفِيِّ الذي يؤمن تمامًا بانعدام وجوده في واقع الحياة[٢٣]:

فَمَنْ لِي بِخِلٍّ صَادِقٍ أَسْتَعِينُهُ عَلى أَمَلِي أَوْ نَاصِرٍ أَسْتَمِدُّهُ ؟
صَحِبْتُ بَنِي الدُّنْيا طَوِيلاً فلم أَجِدْ خَلِيلاً فَهَلْ مِنْ صاحِبٍ أَسْتَجِدُّهُ
فَأَكْثَرُ مَنْ لاقَيْتُ لَمْ يَصْفُ قَلْبُهُ وَأَصْدَقُ مَنْ وَالَيْتُ لَمْ يُغْنِ وُدُّهُ

ويلاحظ استعانته ببعض الوسائل الأسلوبية لتأكيد التعبير عن فكرته ، وتعميق الشعور بها في نفس المتلقي . فهو في المشهد السابق يلح على المعنى بإحدى هذه الوسائل ، وهي الاستفهام في البيتين الأول والثاني ، " وكثيرًا ما كان الاستفهام مرآة عكست واقع الشاعر المرير الذي فرضته حوادث الدنيا ، وتقلبات الزمن ، وغدر الماكرين ، ومن ذلك الواقع افتقاد الصاحب "[٢٤]. وهو الموضوع الذي عاناه كثيرًا في حياته ، وشغله التعبير عنه كثيرًا في شعره ، وتردد فيه منذ همزيته الأولى في صدر ديوانه إلى

٢٢- تطور الأدب الحديث في مصر- د.أحمد هيكل - دار المعارف بالقاهرة - الطبعة السادسة ١٩٩٤م - ص٦٥.
٢٣- ديوان البارودي ص ١٢٥ .
٢٤- بنية الخطاب في شعر البارودي..دراسة أسلوبية - أطروحة دكتوراه بجامعة باتنة بالجزائر- كلية اللغة والأدب العربي- إعداد/عبدالجبار علوي- متاحة على شبكة المعلومات الدولية-١٤٤٠هـ/٢٠١٩م- ص ٢٢٨.

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

غيرها على امتداد الديوان . فقد اختتم تلك القصيدة بأبيات أربعة تجسد عنده تلك الفكرة التي سيطرت عليه[٢٥] ، وفي آخرها يقول :

فـانْفُضْ يَـدَيْـكَ مِنَ الـزَّمـانِ وأَهْلِهِ فـالسَّعْـيُ في طَـلَبِ الصَّـديـقِ هَبَـاءُ

فإن وجد هذا الخل المنشود فلا شك عند البارودي في أنه لـن يكـون وفيًّا ... كما أن المرائين المخادعين موجودون حتى ولو بدا الواحد مـنهم في زي العُبَّاد ، فهو نزَّاعٌ إلى الشر بطبعه[٢٦]:

فَـقَـدْ يَغْـدرُ الْـخِـلُّ الْـوَفِيُّ لِـهَفْـوَةٍ وَيَحْلُو الـرِّضَـا بَعْـدَ الْعَـدَاوَةِ والشَّـرِّ
وَفِي النَّـاسِ مَنْ تَلْقَـاهُ فِي زِيِّ عَـابِـدٍ وَلِلْغَـدْرِ في أَحْشَائِـهِ عَقْرَبٌ تَسْـرِي
إِذَا أَمْـكَـنَـتْـهُ فُـرْصَـةٌ نَـزَعَـتْ بِـهِ إلى الشَّـرِّ أَخْـلاقٌ نَبَتْنَ عَلى غِمْـرِ

وقد أدى به ذلك إلى الاعتقاد بذهاب الود من الناس تمامًا ... :

فلاتطلبْ في الناس مثقالَ ذرةٍ ∴ مِن الوُدِّ أُمُّ الوُدِّ في الناسِ هابِلُ[٢٧]

الهابل : الثكلى . وهو يعني أن أمّ الود ثكلى مات ولـدها!! فهـو إذن غير موجود ، فلا تنتظر من أحدٍ ودًّا ... يقول هذا في قصيدة يمـدح فيهـا صديقه الشيخ حسين المرصفي الذي يستثنيه من هؤلاء ، ويرى أنه أنموذج للكمال![٢٨].

٢٥- ديوان البارودي ص ٤٠ .
٢٦- نفسه ص ٢٠٣ .
٢٧- نفسه ص ٤٣٤ .
٢٨- حيث يقول في الموضع نفسه : بلوت ضروب الناس طُرًّا فلم يكن# سوى المرصفي الحبر في الناس كامل.

ولعلّ أسبابًا سياسية- كما ألمحنا قبل- كانت المُثيرَ الأول لهذه الظاهرة عنده. تدور هذه الأسباب على الأرجح حول الشماتة به من جانب بعض المقربين منه وبعض معارفه غير المخلصين ؛ على إثر فشل الثورة العرابية التي كان البارودي أحد رجالها ، ثم حادث القبض عليه مع زملائه ، ونفيهم خارج الوطن . وقد نُفِيَ هو وزملاؤه إلى جزيرة سرنديب أو سيلان (سريلانكا حاليًّا) في المحيط الهندي جنوب الهند ، ومكث بها سبعة عشر عامًا وبعض العام[٢٩]. فالشعور الطاغي بوطأة الدسائس والحسد والخداع كان أحد توابع هذا الحدث السياسي الفريد. ولكن الدكتور شوقي ضيف يسوق لهذه الظاهرة عنده سببًا أعمَّ من هذا ؛ إذ يردُّها إلى أسباب قومية تتعلق بحرص البارودي على بلاده وخشيته عليها مما حاق بها في ذلك الوقت من أخطار تتعلق جميعها بفساد الخديوي ... يقول بادئًا بالإشارة إلى المحيطين بالبارودي :

" ومن غير شك كان كثيرٌ منهم ينفس عليه ارتفاعَ نجمه ، ولكن ذلك لم يكن العِلَّةَ الحقيقية التي أشاعت في نفسه رنّةً من البرم والضيق الشديد ، فإن كل ذلك إنما كان ذَنَبَ الحيَّة وحواشيَها التي ينبغي أن لا تقطع هي فحسب ، بل ينبغي أن تُقطَع رأسُها حتى لا تقوم لها قائمة . ولم تكن الرأسُ إلا إسماعيلَ الذي سمح لهذه الحاشية الفاسدة، وإذن فإسماعيل هو العلة الحقيقية لأزمته النفسية ، إذ مضى يستدين من الأوربيين ، حتى بلغت ديونه في سنة ١٨٦٨ نحو خمسة وعشرين مليونًا من الجنيهات ، وحتى بدا في الأفق أن كارثة فظيعة لابد أن تُحيق بالبلاد ، إذا استمر ينفق القناطير المقنطرة من الذهب والفضة على قصوره وملاذِّه. ومعنى ذلك أن أزمته

٢٩- راجع : مقدمة ديوان البارودي للدكتور محمد حسين هيكل - ص٢٢ .

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

النفسية لم تكن ترجع إلى أسباب شخصية ، إنما كانت ترجع إلى أسباب قومية"[٣٠]. ومع وجاهة هذا الرأي فإنه لا يسعنا أن نعزل الأسباب الشخصية عن تلك الأسباب القومية التي أشار إليها ، بل يمكن القول بأن وراء ذلك جملة أسباب ما بين قومية وشخصية اجتمعت فأثمرت هذا الشعور الطاغي المنتشر في مواضع كثيرة من شعره .

ويبدو أن البارودي في تجربته المريرة هذه كان يتوقع الرفق به والدعم وعدم الشماتة ، فلمَّا صادف عكس ما توقع جُرِحَ فؤادُه فانثال شعرُه بالتعبير عن هذه الفكرة بشكل متعدد متكرر. يصادفنا هذا في قصيدته المشهورة التي نظمها إبّان نفيه بتلك الجزيرة الآسيوية ، حيث يذكر ماوقع عليه من الظلم بالنفي بلا جريرة سوى دفاعه عن وطنه ، ويذكر الحُسَّادَ الشامتين به على أثر ذلك ، ثم ينبههم إلى جَلَدِه ورباطة جأشه ومصابرته التي يرجو ثوابها من الله تعالى ، وأنه ثابتٌ على موقفه غير نادمٍ على ماجرى مادام غرضُهُ في ذلك كان عِزةَ وطنه ورفعةَ شأن بلده ، وأنّه بنى صرح مجده وانتهى ، فما تسلبه إياه صروف الزمان ليس سوى مكتسبات طارئة لا تشغله ولا يعبأ بها ، فليهدأ إذن أولئك الحاسدون... يقول[٣١]:

فَهَلْ دِفَاعِي عَنْ دِيني وَعَنْ وَطَنِي ... ذَنْبٌ أُدَانُ بِهِ ظُلْماً وأُغْتَرِبُ ؟
فَلاَ يَظُنَّ بِيَ الْحُسَّادُ مَنْدَمَةً ... فَإِنَّنِي صابِرٌ فِي اللهِ مُحْتَسِبُ
أَثْرَيْتُ مَجْداً فَلَمْ أَعْبَأْ بِمَا سَلَبَتْ ... أَيْدِي الْحَوادِثِ مِنِّي فَهْوَ مُكْتَسَبُ

٣٠- البارودي رائد الشعر الحديث – سابق ص٦٠.
٣١- الديوان ص ٧٤ .

وفي ختام عرضنا لهذه المسألة/ شكوى الحاسدين نشير إلى خلاصة المستقِر في نفس البارودي إزاء هذه المسألة ، وهو ما تلخِّصُه موازنةٌ يعقدها الشاعرُ بينه وبين هؤلاء الحاسدين ، بين خُلُقِه القويم ومسلكهم الذميم ... ويفتخر عليهم ببراءة نفسه وأفعاله مما تنطوي عليه صدورهم وأفعالهم من الحقد والغل والكيد ؛ إذ لا يستوي الهداةُ من الناس مع المُضلِّين منهم! (٣٢):

بَـرِئْتُ مِنَ الْغِلِّ الَّـذي أَصْبَحَتْ بِهِ ... قُلُوبُهُمُ مِنْ شَـرِّ مَـا حَمَلَتْ تَـدْوَى

نَصَحْتُ وَغَشُّـوا واسْتَقَـمْتُ وَرَاوَغُـوا ... وَهَلْ مَنْ هَدَى بَيْنَ الأَنَامِ كَمَنْ أَغْوَى

٣٢- نفسه ص ٧١٣ .

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

٢- "الحَمَام" في مقامات شعرية متعددة

يكرر البارودي في ديوانه الشعري الإشارة إلى هذا النوع من الطير – على الأغلب – دون غيره ، في سياقات شعرية مختلفة. والحقيقة أن الحمام ضربٌ من الطيور المتعددة الأنواع ، بحسب الشكل أو اللون أو السُّلالة البيولوجية . فمنه الورقاء وهي الحمامة الرمادية ، ومنه القُمْرِيُّ ، وهو الحمام ذو الطوق والصوت الندي[٣٣] ، ومنه ساقُ حُرٍّ ، وهو ذَكَر القَمارِي . وقد ضج شعر البارودي بذكر الورقاء والحمام بصورة لافتة للمتلقّي . وجاء جُلُّ هذا الاستخدام في مقام النسيب والصبابة ، وفي مقام وصف الطبيعة ، ثم في مقام الذكرى والحنين .

وفي القصيدة التي معنا ورد ذكر الورقاء ثلاث مرات بلفظ (ورقاء) ومرة بوصفها (سَحَرِيَّة) أي تغرد وقت السَّحَر. وقد خلط الشاعر في قصيدته – عند ذكره الحَمَام – مقاماتٍ ثلاثةً مما ذكرنا هي : مقام وصف الطبيعة ، ومقام الشراب ، ومقام الصبابة ... وهاكم الأبيات مفردةً عن سياقاتها ، أي بغير ترتيب في القصيدة:

غادِ النَّدَى بالْجِيزَةِ الْفَيْحَاءِ ... واحْدُ الصَّبُوحَ بِنَغْمَةِ الْوَرْقَاءِ

مِنْ كُلِّ حَرْفٍ فيهِ مَعْنَى صَبْوَةٍ ... تَتْلُو بِهِ الْوَرْقَاءُ لَحْنَ غِنَاءِ

وَتَرَنَّمَتْ في وَكْرِها سَحَرِيَّةٌ ... تُغْنِي الْمَقَامَةَ عَنْ صَفِيرِ النَّاءِ

٣٣- ورد في لسان العرب (قمر) قوله :" القُمْرِيُّ طائر يُشْبه الحَمامَ القُمْرَ البيضَ. ابن سيده : القُمْرِيَّة ضرب من الحمام".وفي تاج العروس٢٥/٤٧٣ :" وقالَ السُّكَّرِي: القُمْرِيُّ والصلصل وَمَا أشبَهَهُما تسمَيها العَرَبُ الحَمامَ" .وفي المعجم الوسيط ٢/٧٥٨ : " (الْقمرِي) ضرب من الْحمام مطوق حسن الصَّوْت" .

وَرْقَاءُ تَسْجَعُ فِي سَمَاوَةِ أَيْكَةٍ مَوْشِيَّةِ الْعَذَبَاتِ بِالأَنْدَاءِ

فمقام الوصف والشراب معًا بالبيت الأول ، ومقام الصبابة في البيت الثاني ، والبيتان الثالث والرابع هنا في مقام الشراب بقرينة البيت السابق عليهما في القصيدة ، وهو قوله :

فَانْهَضْ إِلَى شُرْبِ الصَّبُوحِ فَقَدْ بَدَا شَيْبُ الصَّبَاحِ بِلِمَّةِ الظَّلْمَاءِ

وسوف نقسم مُماثِلاتِ هذه الفكرة – في شعره بوجه عام – أقسامًا بحسب المقامات المذكورة ، لننظر كيف تأتَّى للشاعر أن يتعامل معها ، وأن يتمم بها صورة فنية أو يسلكها في مشهد شعري. ولا غرو أن طبيعة الأداء الشعري قد لا تتيح عزل المقامات عزلًا تامًا بالنسبة لورود ذكر الحمام، ومن المؤكد أن منها ما يظهر متداخِلًا ممتزِجًا بعضه مع بعض؛ وبخاصة أنها مُندرِجةٌ جميعًا تحت مقامٍ أشمل هو مقام اللهو. وسوف نجتهد أن يستقل كلّ مقام بذاته ، فإن استحال الأمرُ نبّهنا عليه في موضعه. وسوف نقتصر من تلك المقامات على الثلاثة المشار إليها ؛ بغية الاختصار. وللباحث في الديوان مجالٌ مفتوح يستنبط منه على هذا الغرار ما يبدو له ويَجِدّ في نظره من ذلك.

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

مقام الصبابة

أول ما يصادفنا في شعر البارودي من هذا الموضوع لفظتا (ورقاء – الحمام) في همزية له في النسيب بَنَى رَويَّها- بناءً فنيًّا لا نحويًّا – على الضم. يصف الشاعرُ حالَ الصبابة التي يقاسيها مع محبوبه . ولكي يؤكد حالة اللوعة والجوى والشوق الذي يتعذب به ، فإنه يطلق لخياله الشعري المجال ليجعل هذا الطير الأعجم يرقّ لحاله ويشفق عليه ويبكيه عاشقًا تطير النسائمُ بأخبار عشقه فتتسمَّعها أغصانُ الأشجار منجذبةً إلى فتونها ، ويتلقفها الحمامُ ويشدو بها فيسحر بقصة حبِّه النساءَ والشعراء جميعًا ... راقب قوله الآتي[٣٤]:

فَانْظُرْ إِلَيَّ تَجِدْ خَيَالَةَ صُورَةٍ ... لم يَبْقَ فيها للحياةِ ذَمَاءُ

رَقَّتْ لِيَ الْوَرْقَاءُ في عَذَباتِها ... وبَكَتْ عَلَيَّ بِدَمْعِهَا الأَنْدَاءُ

وَتَحَدَّثَتْ رُسُلُ النَّسِيمِ بِلَوْعَتِي ... فَلِكُلِّ غُصْنٍ نَحْوَها إِصْغَاءُ

كَلَفٌ تَنَاقَلَهُ الْحَمامُ عَنِ الصَّبَا ... فَصَبَتْ إِلَيْهِ الْغِيدُ والشُّعَرَاءُ

ويأتي البارودي في قصيدة أخرى على الفكرة نفسها ، وهي ذِكر الحمام في سياق إشفاقه على الشاعر العاشق ... يقول[٣٥] :

وَرَقَّتْ لِي قُلُوبُ النَّاسِ حَتَّى ... بَكَى لِي كُلُّ سَاقٍ فَوْقَ سَاقِ

٣٤- الديوان ص ٣٨-٣٩.

٣٥- نفسه ص٣٦٩. ساق الأولى : ساق حر، وهو ذكر الحمام أو ذكر القَمارِي، والثانية ساق الشجرة.

فالورقاء والحمام[٣٦] وساق حُر هنا يقوم كلٌّ منهـا بـدور العَطُـوف الحانِي على العُشَّاق. هو نموذجٌ وظفّه الشاعر ليتمم بـه حكايـة اللوعـة العارمة والعشق المضني في إطار خيال أقرب إلى خيال الرومانسيين ، لكنّ المتأمل للشعر العربي القديم يدرك بيسر أن هـذه الصـورة متكـررة فيـه ومأثورة عنه . أي أن هذا الملمس الرومانسي ليس بتجديد كما يبدو لأول وهلة ، بل هو تقليدٌ لنهج قديم في الشعر العربي ، هذا النهج الذي يكشـف عن علاقة طبيعية قوية بين تغريد الحمام وتهييج ذكرى الحب . قلنا إذن إن الفكرة ذاتها مقبوسة وإنك لتجدها في التراث . خذ مثلًـا قـولَ أحمـد بـن عبدربه الأندلسي[٣٧] :

وكان ارتياحي من بكاء حمامة　　كذي شجن داويته بشجون

كأنّ حمام الأيك لما تجـاوبت　　حزينٌ بكى من رحمة لحزين

فما بَعُدَ قولُ شاعرنا (رقت لي الورقاء) من قول ابن عبدربه (حزينٌ بكى من رحمة لحزين) ، والفارق بينهما أن صاحبنا يُباشر الحال ويسـمو بالخيال ، فالورقاء تشفق عليه بالفعل ، أما ابن عبدربه فيعرض ذلـك فـي صورة تشبيهية (كأن حمام الأيك حزين بكي رحمةً وشفقةً لأجل حزين آخر، وما كان حزنه أساسًا إلا من أجل صاحبه الشاعر). و (كأنَّ) هنا للمتأمـل ليست للتشبيه فحسب! إنها تشير إلى نظرة واقعية للأمر من جانب أحمد بن

٣٦- لايرق له الحمام وحده ، بل النسيم وأغصان الشجر كما هو واضح ، لكنا هنا نركز علـى موضوعنا.

٣٧- العقد الفريد – دار الكتب العلمية – بيروت الطبعة الأولى، ١٤٠٤هـ - ٢٦٢/٦ .

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

عبدربه ، فهو لم يَهِلْ على تعبيره غُبارَ الخيال حتى يُغَيِّبَه تمامًا ، بل ترك نافذة للواقع يطل منها : فالحمام الشادي بنغم حزين ليس بالضرورة أن يكون حزينًا في الواقع – إننا لايسعنا عقلًا أن نقول بذلك – لكن حالته التي نشهدها هذه تضاهي حالة شخص انتابه الحزن بسبب إشفاقه وتأثره بشخص آخر حزين بالفعل لمصاب ناله ، أو نحو ذلك ...

ويدرك بعض الشعراء مدى التهويم الخيالي الجامح وكثرة الإلحاح عليه فيفندونه حتى لو علموا وأدركوا أنه خيالُ شعراء ، وأنه طبيعيٌّ في الشعر . لكن استمراء الشعراء لهذه التصوّر الفني بجعل الحمام – في هديله – حزينًا أو عاشقًا يتلظى أو باكيًا يرق لأحدٍ من الناس ، أقول : هذا الاستمراء جعل بعض الشعراء يفسد تلك القضية ويصدم الخيال بحائط الواقع الحقيقي ... تأمل قول ابن عبدالظاهر الآتي ، فهو في هذا السياق[٣٨]:

نسبَ الناسُ للحمامةِ حُزنًا وأَراها في الحزن ليستْ هنالكْ
خَضَبَتْ كَفَّها وطَوَّقَت الجِيدَ وَغَنَّتْ، وما الحزينُ كذلكْ

وفي مقام الصبابة أيضًا تتسرب إلى قصيدة البارودي التي ندرسها فكرة التحدي في العشق والهوى – إذا جاز التعبير – وفيها يفتخر الشاعر على تلك الورقاء بأنها لايسعها أن تدانيه عشقًا أو تطاوله جوًى ، أو تشابهه معرفةً بأمور الشوق والغرام ... فهو يجعلها مُنافسًا له ينازله ويتغلب عليه ! ... يقول من همزيته التي معنا :

٣٨– نهاية الأرب في فنون الأدب – شهاب الدين النويري – دار الكتب والوثائق القومية – القاهرة – الطبعة الأولى ١٤٢٣ هـ – ٢/٢٦٥.

قَـدْ أَشْبَهَـتْنِي فِي الْـهَـوى لَكِنَّـهـا لَـمْ تَحْكِنِي فِي لَـوْعَتِي وَبُكـائِي
مَـالَ الـنَّسِيمُ بِـهَـا ومَـالَ بِيَ الأَسَى إِشَتَّـانَ بَـيْـنَ نَـعِـيـمِـهـا وَشَـقـائِـي
أَنَـا يَـا حَمَـامَـةُ مِنْـكِ أَعْلَمُ بِـالْهَـوَى فَـدَعِي الْحَنِينَ فَلَسْتِ مِنْ أَكْـفـائِي

وقال من قصيدة أخرى يظهر فيها مُعلِّمًا للحب والصبابة ، متخذًا الحمام رمز الألفة والمحبة وسيلة يظهر عليها ... تأمّل مقالتَه الشعرية[٣٩]:

وَقَـدْ شَـاقَنِي والصُّبْـحُ فِي خِـدْرِ أُمِّـهِ حَنِينُ حَمَـامَـاتٍ تَجَـاوَبْنَ فِي وَكْـرِ
هَـتَفْـنَ فَـأَطْـرَبْنَ الـقُـلُوبَ كَـأَنَّـمَـا تَعَلَّمْنَ أَلْحَـانَ الصَّبَابَـةِ مِنْ شِعْـرِي

وهذه الفكرة قديمة موروثة . فهو متأثرٌ – كما أشرنا قبلُ مِرارًا – بأفكار الشعر القديم ومعانيه في عيونه وغرره. يستقى منه مصاغه التعبيري حينًا ، و صوره الشعرية ، أو أفكاره ومعانيه حينًا آخر . لنراقب الأبيات الآتية من أشعار القدماء[٤٠] :

ورقاء قد أخذت فنون الحزن عن يعقوب والألحان عن إسحاق
قامت تطارحني الغرام جهالة من دون صحبي بالحمى ورفاقي
أني تباريني جوى وصبابة وكآبة وأسى وفيض مآقي
وأنا الذي أملى الجوى من خاطري وهي التي تملي من الأوراق

٣٩- ديوان البارودي ص ١٩٦.
٤٠- خزانة الأدب وغاية الأرب – ابن حجة الحموي – المحقق: عصام شقيو – دار ومكتبة الهلال- ٢٠٠٤م – ٨٨/٢ . والشعر لبدر الدين يوسف بن لؤلؤ الذهبي (ت٦٨٠هـ) .

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

والتعابير (تطارحني الغرام جهالة – أنى تُباريني جوًى وصبابةً ... – وأنا الذي أُمْلِي الجوى من خاطري – هي تملي من الأوراق) كلها تظهر نبرة الاعتداد الشديد بالذات ، فهو يرى نفسه عاشقًا أصيلًا ، بل أستاذَ هذا الفن التي يُعلِّمُهُ غيرَه ، إن صبابته ولوعته تنساب من داخله الملتهب وليس تكلُّفًا أو اصطناعًا! كأنه يُملِي من القلب والخاطر ، والحمامة تُمْلِي من ورق مكتوب!! ... وشبيهٌ بهذا صنع شاعرُنا البارودي في الموضعين السابقين ، وغيرهما للمتأمل المتأني كثير.

وفي مقام النسيب قد يذكر محمود سامي البارودي اسم هذا الطير/الحمامة ، ويوظفه لتجسيد لمحة جماليّة في المحبوبة. تأمل كيف وظَّفَ لفظة (قطاة)، وهي الحمامة[٤١]، ليعبر عن جمال مشية محبوبته المتثاقلة[٤٢]:

هَيْفَاءُ مالَ بِهَا النَّعيمُ فَخَطْوُها دُونَ الْقَطاةِ ونُطْقُها إِيمَاءُ

وفي النسيب أيضا يَضرب المثلَ في تحمُّل لوعة الهوى بالحمام . وكأنه يرى أن الحمام أكثر الطير والحيوان احتمالًا لسطوة العشق وانفعالًا به غناءً وتغريدًا . فهاهو يُقرّب لمحبوبته صورة مابه من هيمنة حبها على قلبه إلى الحد الذي حوَّلَه إلى داءٍ لا يُحتمل، حتى قلب الحمام حمَّال الأسى لا

٤١– القطا نوع من الحمام ، واحدته قطاة . وفي لسان العرب :أنه " سُمِّيَ بذلك لثِقَلِ مَشْيِهِ".
٤٢– ديوان البارودي ص٣٩.أدرك هذا أيضا د.بدر الدين سليمان في : المرأة في شعر البارودي – ص٧٤٧.

يمكنه تحمُّل مابه... راقب عبارته الشعرية متحدثًا لمحبوبته عن نفسه بصيغة الغائب(٤٣):

وَحَسْبُهُ مِنْكَ داءٌ لَوْ تَضَمَّنَهُ قَلْبُ الْحَمامَةِ ما غَنَّتْ على عَذَبِ

وتشبيه المرأة بالحمامة في الرقة ليس جديدًا في واقع الحال . لكن ما يشغلنا هنا هو أن الحالة الموصوفة تَعْرَى عن التجربة أو تخلو منها ، ويكون الوصف الشعري مجرد حلية فنية أو مجرد إثبات للقدرة الصياغية العالية ، أو لنقل : تكون برهانًا على تمكنه الفني . فأحيانًا يطلب أحد أصدقاء الشاعر منه أن يعارض أو يحاكي شاعر قديم من أفذاذ الشعر في قريضه وتصاويره ، في موقف محدد أو قصيدة معينة ، فينبري البارودي ، ويتخذ ذلك وسيلة للتحدي . فعندما سأله أحد الفضلاء – كما يحكي محققا الديوان – أن يوازن قصيدة تائية لابن النبيه الشاعر المعروف (ت٦١٩ه) في النسيب ، فإنه لا يغفل ذكر الحمام في قصيدته التي كتبها ، يتخذ من ذِكرِه وسيلة لوصف جمال المرأة ورقتها(٤٤) :

خُوطِيَّةُ الْقَدِّ لَوْ مَرَّ الْحَمَامُ بِها لم يَشْتَبِهْ أَنَّها مِنْ أَيْكِهِ انْتَزَحَتْ

هي إذن حمامة أو أشبه بالحمام منها بالنساء ، لخفتها ورقتها. بيد أنه في موقف آخر يناجي حمام الأيك ، إذ يراه هانئًا سعيدًا والشاعر صبٌّ جريح ، ويرى الحمامَ يبكي ، فهل بكاؤه من أجله هو ؟! .. يخاطب الشاعرُ

٤٣– نفسه ص ٧٩ . والعَذَب : غصن الشجر .

٤٤– نفسه ص ١٠٨.

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

الحمامَ بأنه لو أراد أن يساعده ويشفق لوجده ولوعته فيبكي ، فإن عليه إذن أن يسكب دمعًا مدرارًا يشفي به صدره ، فالبكاء في هذا المقام يريح النفس ويزيل همومها .. واضحٌ أن الشاعر هنا يتخذ هذه الفكرة وسيلةً فنية لحوار كاشف عن حالة الحب التي يعيشها ومدى اشتعالها واضطرامها ... ويضع الدليل على تأثره الكبير في هذا الأمر بالتراث الشعري حينما يصدّر أبياته ببيت قديم للشاعر الجاهلي أبي كبير الهذلي... ولعل ذلك ولعٌ من البارودي بمعارضة القدماء في روائعهم الشعرية بعدما أُتْخِمَ الشعر العربي في عصره بالتكلف والألغاز والمناسبات الساذجة! ... إن عيون الإحيائيين – وهو في مقدمتهم – كانت على ذاك التراث البديع الذي كان الأنموذج الأعلى في الفصاحة والبيان. راقب الأبيات الآتية ، وبيت أبي كبير في أولها[٤٥] :

(أَلَا يا حَمَامَ الأَيْكِ إِلْفُكَ حَاضِرٌ وَغُصْنُكَ مَيَّادٌ فَفِيمَ تَنُوحُ ؟)

غَدَوْتَ سَلِيماً في نَعِيمٍ وَغِبْطَةٍ وَلكِنَّ قَلْبِي بِالْغَرَامِ جَرِيحُ

فإِنْ كُنْتَ لِي عَوْناً عَلَى الشَّوْقِ فاسْتَعِرْ لِعَيْنَيْكَ دَمْعاً فَالْبُكَاءُ مُرِيحُ

وَإِلَّا فَدَعْنِي مِنْ هَدِيلِكَ وانْصَرِفْ فَلَيْسَ سَواءً بَاذِلٌ وشَحِيحُ

فالشاعر هنا يبدو مرتابًا فيما يداعب خيالَه من مشاركة الحمام إيَّاه في مشاعره وحنينه، فكأنما يطالبه بالدليل على صدق هذه المشاركة المفترضة، أو المتخيلة، أو التي ينسرب الإحساس بها في رُوعه!... وفي موضع آخر، ولكن في المقام ذاته – احتدام الشوق – يعرض الشاعر لهديل الحمام ، أو لنقل لبكائه كما يتصوره هو! ويبدو في ذلك متسائلًا أيضًا عن صدق تلك المشاركة، غير أنه سرعان ما تقتنع نفسه وتستريح إلى هذا الخيال الحالم

٤٥– نفسه ص ١١٣– ١١٤.

فتراه واقعًا، وأن هذا الطير إنما يبكي ليشاركه لوعته وحنينه، بل تجاوز الأمر الطير إلى عناصر أخرى من الطبيعة الحاضنة... لنراقب صدر الأبيات المنتقاة وختامها، ونرى التساؤل يحول قناعةً وجوابًا بالإيجاب[٤٦] :

أَتَرَى الْحَمَامَ يَنُوحُ مِنْ طَرَبٍ مَعِي ... وَنَدَى الْغَمَامَةِ يَسْتَهِلُّ لِمَدْمَعِي ؟
مَا لِلنَّسِيمِ بَلِيلَةً أَذْيَالُهُ ؟ ... أَتَرَاهُ مَرَّ عَلَى جَدَاوِلِ أَدْمُعِي
فَالْغَيْثُ يَهْمِي رِقَّةً لِصَبَابَتِي ... وَالطَّيْرُ تَبْكِي رَحْمَةً لِتَوَجُّعِي

وهكذا يوظف الشاعر هديلَ الحَمام ، وغيرَهُ لمواساة الذات المحترقة جوًى وعشقًا، فهو" بهذا التشخيص يجعل ما حوله من عناصر الطبيعة تشاركه همومه وأحزانه ، تنفيسًا عن نفسه المرهقة بالأحزان ، وتخفيفًا من وطأة البين وألم الفراق"[٤٧].

وقد يكمل الشاعرُ بِذِكْرِ الحمام جوانبَ الصورة الوصفية التي يطرحها في شعره. فتصبح الفكرةُ جزءًا من الصورة ؛ لأنها دائمًا ملمحٌ من كل مشهدٍ جميل عند البارودي. راقب فكرة الحمام الشادي بحسبانه تفصيلًا أصيلًا من تفاصيل المنظر الطبيعي البديع. وهنا يخلط الشاعر بين مقام الطبيعة ومقام الصبابة ومقام الشراب في صورة واحدة ، الغرض منها

٤٦- نفسه ص ٣٢٠ (الأبيات الأول والثاني والخامس من إحدى عينيات ديوانه).وقد كرر ذلك في غير موضع من ديوانه : يُراجَع مثلًا - ص٥٧٠ - قوله : رق النسيم لحالي# وسال دمعُ الغمام ، وساعدتني فناحت # علَيَّ ورق الحَمام . وكذلك قوله ص ٦٢١ : رق طبع النسيم رفقًا بحالي# وبكَى رحمةً عليَّ الحَمامُ

٤٧- بنية الخطاب في شعر البارودي :سابق ص ٢٢٥- ٢٢٦.وفي (البارودي حياته وشعره) للدكتورة نفوسة زكريا - سابق ص ٣١٧- ٣١٨ تَذْكُر المؤلفةُ - مُعَلِّقَةً على أبيات غزلية للشاعر- أنه يتحدث عن تأثر الطبيعة بجمال محبوبته ، واشتراكها معه في حبها ، ومن ذلك غناء الحمام .

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

وصف روضة (كَنْدِى) من رياض سرنديب الهندية الرائعة... والحمام المذكور يمثله هنا القُمْرِيُّ الشادي كأنه عاشق تائه أو منتشٍ بالخمر التي أسكرته[٤٨] :

يَمُدُّ شُعَاعُ الشَّمْسِ فِي حَجَراتِهَا سَلاَسِلَ مِنْ نُورٍ لَهُنَّ بَرِيقُ
وَيَشْدُو بِهَا الْقُمْرِيُّ حَتَّى كَأَنَّهُ أَخُو صَبْوَةٍ أَوْ دَبَّ فِيهِ رَحِيقُ

٤٨- نفسه ص ٣٧٤ .

مقام الطبيعة

في هذا المقام يتسع التعويل على ذِكْر الحمام ، غير أن مقتضى الإيجاز يدفعنا إلى الاكتفاء بمثال أو اثنين لإثبات الظاهرة التكريرية . من هذه الأمثلة المثال السابق مباشرة ، وهو آخر الأمثلة المطروحة في مقام النسيب. وثَمَّ موضع آخر يصف الرياض زمن الخريف ، ويذكر الحمام باسم عام هو الطير ، وأنت لاتدرك أنه الحمام إلا من صوته !! ..... أعني ذكر الشاعر لهديله في المزارع الخضراء على غصون أشجارها النضرة. وغالبًا ما يستخدم البارودي لفظة (الأيك) – وهي تعني الشجر الكثير الملتف – مع ذكر الحمام . ولقد سبق شيءٌ من هذا . ويلحظ القارئ أن الطير/الحمام بهديله وشدوه يشكّل عنصرًا مُهِمًّا من عناصر الصورة المرسومة للمنظر الطبيعي شعرًا . إن وظيفته هنا دعم الصورة الكلية للمشهد بجانب عناصرها الأخرى من الشمس والماء والنسيم النديّ والضباب والغمام والزروع ، ونحو ذلك ... يقول البارودي[٤٩] :

تَبْتَهِجُ العَيْنُ في رِياضٍ أَنْضَرَها الماءُ والْهَواءُ
لِلطَّيْرِ في أَيْكِها هَدِيلٌ وللصَّبا بَيْنَها مُكَاءُ

والوظيفة ذاتها في مشهد مماثل يجعلها الشاعرُ للفظة (الوُرْق) – جمع الورقاء أي الحمامة الرمادية – فهاهو يصف منظرًا طبيعيًّا ساحرًا في موضعٍ حلَّ به في ضواحي بلدة (قندية) – كاندية حاليًّا – بجزيرة إقريطش/

٤٩– نفسه ص ٤٥.

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

جزيرة كِريت اليونانية حاليًّا ... والحمام الأورق عنصر حـيّ أيضًـا مـن عناصر تلك الطبيعة الفاتنة ... تأمل ما يقول[٥٠]:

تَسْتَوقِفُ الأَبْصَارَ فى غُدْرانِها صُوَرٌ تَزُولُ مَعَ النَّسِيمِ وتَطْرَأُ

فالْوُرْقُ تَهْتِفُ والرَّبارِبُ تَرْتَعِي والْعِينُ تَبْغَمُ والبلابِلُ تَصْرَأُ

٥٠- نفسه ص ٤٦.تَبْغَم : تصدر صوتًا رخيمًا ، وهو صوت الظبية والبقرة الوحشية .تَصْرَأُ أيضًا: تصيح.

مقام الذِّكرَى

لقد تخذ هذا المقام وسمَه هذا بسبب من هدف الشاعر نفسه من إنشاء القصيد. فقد تأتي الأشعار في وصف الطبيعة لكن على سبيل الذكرى ، وليس وصفًا يقع بالمشاهدة الراهنة يرى الشاعر المشهد فيصفه. لكنها تكون اجترارًا وتذكُّرًا لتلك المناظر الطبيعية التي عاش فيها ذات يوم ، فحَنَّ إليها ... هذا بتمامه ما حدث في الأبيات الآتية التي ورد ذكر الحمام فيها عنصرًا وظيفيًّا من عناصر المشهد البديع الذي يجتر ذكراه .. لاحظ وصفه لمنطقة – روضة النيل (منطقة منيل الروضة بالقاهرة حاليًّا) من قصيدة له وهو في المنفى يتشوق إلى وطنه :

يَـا حَبَّـذَا نَسَـمٌ مِـنْ جَـوِّهَـا عَبِـقٌ يَسْـرِي عَلَى جَـدْوَلٍ بِـالْمَـاءِ دَفَّـاقِ
بَـلْ حَبَّـذَا دَوْحَـةٌ تَـدْعُـو الْهَـدِيـلَ بِهَـا عِنْـدَ الصَّبَاحِ قَمَـارِيٌّ بِـأَطْـوَاقِ

والحمام هنا – كما هو واضح – القَمارِيُّ[٥١] – وهو نزيل الأيك والدوح في شعره دائمًا . وقد أخذت القماريّ مهمتها في الوصف الشعري ، وهي التغريد وتذكر الهديل[٥٢] ، في زمن تخيره الشاعر ليكتمل مشهد البهاء الطبيعي ، وهو الصباح . إن تغريد الحمام هنا ليس لحنًا من ألحان الصبابة والهوى بقدر ما هو لحنٌ من ألحان ذكرى الطبيعة الجميلة في موطن الشاعر ومراتع صباه التي أُبْعِد عنها قسرًا!

٥١– سبق التعريف به في هامش رقم ٢٩ .

٥٢– ورد في كتاب الجراثيم لابن قتيبة ٢٩٢/٢ ما يلي : " والهديل: الذكر من الحمام، وهو صوته أيضًا، والأعراب يقولون: إنه فرخ كان على عهد نوح عليه السلام فمات ضيعة وعطشًا فما من حمامة إلا وهي تبكي عليه". ولعل هذا المعنى الأخير هو ما يقصده الشاعر بالهديل هنا.

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

وقد يكون شدو الحمام مجردَ إيذانٍ بطلوع فجر ليلة حالمة . ويكــون تغريد الحمام طقسًا عاديًّا وحركة معهودة في مسرح الطبيعة لا علاقة متينةً بينه وبين حبّ أو بغض ، أو بهجة إنسان أو حزنه ، اللهــم إلا أن يرغــب الشاعرُ في أن يجعله إطارًا جميلًا يزيِّن به صبح ليلة ممتعة قضاها مع إلفه ... تأمل هذين البيتين على المثال وهو يصف ختام تلك الليلة السعيدة :

حَتَّى إِذَا رَفَّ خَـيْطُ الْفَـجْـرِ وَابْتَـدَرَتْ حَمَـائِمُ الأَيْـكِ تَشْـدُو فِي أَغَـانِيهَـا

قَــامَتْ تَمَـايَــلُ سَكْـرَى فِي مَــآزِرِهَــا وَالــرَّوْعُ يَبْعَثُهَــا طَــوْرَاً وَيَـثْنِـيهَــا

إذن فخيط الفجر وشدو الحمام علامتان للوقت ، ولا يبــدو أن هنــاك دلالة للفظة (الحمائم) أكثر من هذا ، حتى وإن بدا الشاعر يصف ليلة هنيئة له جعل تغريد الحمائم موسيقى ختامية لها.

خاتمة

ومن خلال دراسة ظاهرتي الشكوى من أفعال الحاسدين ، و ذِكر طائر الحَمام في غنائه وبكائه ورقته وحنينه في سياق الحب والحزن ونحو ذلك ، أثمر البحثُ عددًا من النتائج نوجزها في الآتي :

١- أن إحدى هاتين المسألتين قديمةٌ قِدمَ الشعر ، تطرق إلى توظيفها في تشكيل الفن الشعري كثيرٌ من الشعراء القدامى ، وهي ظاهرة مناجاة الحَمام أو ذِكر حنينه وبكائه. أما المسألة الأخرى وهي الضيق بسلوك الحاقدين ، فهي مسألة مردُّها الذات الشاعرة ؛ إذ ارتبطت ارتباطًا وثيقًا بأحداث الحياة الشخصية للشاعر، وكذلك بالأحداث السياسية التى جرت بالقطر المصري فترة حياة البارودي. ومن ثم فهي تُعَدُّ من دلائل تعبير الفن عن واقع الحياة الذاتية والاجتماعية للفنان .

٢- جَرَى كثيرٌ من طروحات تلك الشكوى في سياق الاعتداد الواضح بالذات الخاصة للشاعر، ونَبَعَ من الفخر الفردي بقدراته الشخصية والفنية ، وشعوره الحاد بتميُّزه وتفوقه على هذين المستويين وغيرهما عن سواه ؛ الأمر الذي أدى إلى انبثاق هذه الظاهرة تعبيرًا حُرًّا صادقًا عن ذلك الشعور، وردَّ الشاعرُ ما يصفه من حقد الحاقدين إلى الغيرة الكامنة في نفوس مخالطيه في القصر الحاكم أو في المجتمع أو في الجندية.

٣- تنوعت مظاهر شكوى الحاسدين لدى الشاعر تنوعًا واضحًا ، بدأ بالنعي عليهم سلوكهم ، وبسط القول في تعديد أنماط هذا السلوك البغيض ووصفها ، مرورًا بالتحذير منهم والتسامي على أفعالهم ، والدعاء بالسوء

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

عليهم ، وانتهى في أعلى موجاته بالطعن في أصولهم التي يَرُدُّ إليها سلوكَهم المشين.

٤- تركت هذه الظاهرةُ الأخلاقية- الحقد والحسد والغدر- أصداءَها السيئةَ على نفس الشاعر وحياته ، مما نضح به تعبيرُه الفني في شعره . وقد كدَّرتْ صفاءَ ذاته ونكَّدَتْ عليه عيشَه ، على الرغم من وسائل العيش الهنيء التي تحيط به ، إذ جعلها حقدُ الحاقدين وغدرُ الغادرين جحيمًا ، لجأ منه إلى الله العظيم مستجيرًا به مستغيثًا . ومن هنا يسلم لهذا الشعر الكلاسيكي تعبيره الصادق عن أوجاع الذات وتصويره لما يمور داخلها ، وبذلك ينفي عنه اتهام بعض النقاد لأرباب هذه المدرسة أحيانًا بضعف التعبير عن المشاعر الذاتية.

٣- يبدو توظيف طائر الحَمام في شعر البارودي ذا طابع رومانسي حالم ؛ لمروره في سياق الحب والغرام غالبًا . لكن المتأمل لهذا التوظيف يدرك أنه استلهام لنهج تراثي قديم جرت عليه أفهامُ الشعراء الغابرين. وإن لم يخلُ الأداءُ الشعري فيه من سمت رومانسي .

٤- تعددت سياقات هذا التوظيف في شعر البارودي فجاء في مجال الحب ومجال الطبيعة ومجال الذكرى . وهذا تنوع دالٌّ على هيمنة الذاتية الشاعرة على معظم مواضع الاستخدام ، كما أنه يشير إلى قدرة الشاعر على الخروج من إسار الاستخدام القديم الذي كاد أن يقتصر على مجال الهوى والعشق.

ويبقى أن نشير إلى توصية مهمة أسفرت عنها هذه الدراسة ، لعلها تعود بفائدة على البحث الأدبي في هذا الاتجاه . ذلك أنه قد بدت لنا لدى معالجة ظاهرة التكرير الموضوعي في شعر البارودي عدةُ ظواهر تكرارية متعلقة بذلك الجانب الموضوعي في النص الشعري ، بخلاف ظاهرتي الدراسة . ومن هذه الظواهر: ذكر ريح الصَّبا ، وذكر النسيم ، والتغني بإخلاص الذات ، وتجرُّع عقاب الأبرياء ، وفكرة التبكير إلى الشراب ، وفكرة عتق الخمر ، وفكرة التغني بتقديسها. وكلها موضوعات وأفكار ترددت بدرجة لافتة لقارئ شعر الرجل ، وتعددت النماذج والمواضع التي تضمنتها. ومن هنا يأمل الباحث أن تُلفِت هذه الظواهرُ الموضوعيةُ نظرَ الباحثين في شعر أعلام المدرسة الكلاسيكية ، وبخاصة في ديوان محمود سامي البارودي.

❋❋❋❋❋

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050
الترقيم الدولي الإلكتروني ISSN 2636 - 316X

ثبت المصادر والمراجع[٥٣]:

١- البارودي حياته وشعره – د.نفوسة زكريا سعيد – مؤسسة عبدالعزيز سعود البابطين للإبداع الشعري – مطابع جريدة السفير- الإسكندرية – أكتوبر ١٩٩٢م.

٢- البارودي رائد الشعر الحديث – د.شوقي ضيف – دار المعارف بالقاهرة – الطبعة الرابعة (د.ت.).

٣- البطولة والقيم الإسلامية في شعر البارودي – النوراني عبدالكريم كبور- أطروحة دكتوراه – ٢٠٠٦م/١٤٢٦ه-كلية اللغة العربية – جامعة أم درمان – السودان.

٤- بنية الخطاب في شعر البارودي...دراسة أسلوبية – أطروحة دكتوراه بجامعة باتنة بالجزائر- كلية اللغة والأدب العربي- إعداد/عبدالجبار علوي- متاحة على شبكة المعلومات الدولية-١٤٤٠ه/٢٠١٩م.

٥- تاج العروس من جواهر القاموس – مرتضى الزبيدي – نشر دار الهداية . د.ت.

٦- تطور الأدب الحديث في مصر- د.أحمد هيكل – دار المعارف بالقاهرة – الطبعة السادسة ١٩٩٤م.

٥٣- لم يُعتد في ترتيبها بـ (ال) التعريف ، ولا بكلمتي (أبو) و (ابن) .

٧- ثنائية الأنا والآخر في شعر محمود سامي البارودي - حامد الرواشدة - مجلة دراسات العلوم الإنسانية والاجتماعية - الناشر : الجامعة الأردنية / عمادة البحث العلمي - مج٤٤- ع٢ /٢٠١٧م.

٨- الجراثيم - ابن قتيبة الدينوري - تحقيق/ محمد جاسم الحميدي - وزارة الثقافة بدمشق - د.ت.

٩- خزانة الأدب وغاية الأرب - ابن حجة الحموي - المحقق: عصام شقيو - دار ومكتبة الهلال- ٢٠٠٤م.

١٠- ديوان البارودي : محمود سامي البارودي - تحقيق وشرح/ علي الجارم ، ومحمد شفيق معروف - دار العودة - بيروت / لبنان - ١٩٩٨م.

١١- العقد الفريد - أحمد بن عبدربه - دار الكتب العلمية - بيروت الطبعة الأولى، ١٤٠٤هـ.

١٢- لسان العرب - تأليف/ جمال الدين ابن منظور- نشر دار صادر- بيروت ، الطبعة الثالثة - ١٤١٤ هـ.

١٣- المرأة في شعر البارودي .. دراسة موضوعية فنية - بدر الدين سليمان - حولية كلية اللغة العربية بالزقازيق- ع٣٠ مج١ - ٢٠١٠م .

١٤- المعجم الوسيط - مجمع اللغة العربية بالقاهرة - مجموعة من علماء المجمع - نشر دار الدعوة.

١٥- مفتاح العلوم لأبي يعقوب يوسف السكاكي- ضبط وتعليق/نعيم زرزور- دار الكتب العلمية- بيروت- الطبعة الثانية ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.

١٦- نفحة اليمن فيما يزول بذكره الشجن - أحمد بن محمد الأنصاري الشرواني - مطبعة التقدم العلمية بالقاهرة - الطبعة الأولى ١٣٢٤هـ .

١٧- نهاية الأرب في فنون الأدب - شهاب الدين النويري - دار الكتب والوثائق القومية - القاهرة - الطبعة: الأولى ١٤٢٣ هـ .

فهرس الموضوعات

م	الموضـــــوع	الصفحة
١-	ملخص	٧٧١٩
٢-	Abstract	٧٧٢١
٣-	التقديم	٧٧٢٣
٤-	الدِّراسَة	٧٧٢٩
٥-	١- شكوى الحاسدين	٧٧٢٩
٦-	٢- "الحَمَام" في مقامات شعرية متعددة	٧٧٤٢
٧-	مقام الصبابة	٧٧٤٤
٨-	مقام الطبيعة	٧٧٥٣
٩-	مقام الذِّكرَى	٧٧٥٥
١٠-	خاتمة	٧٧٥٧
١١-	ثبت المصادر والمراجع	٧٧٦٠
١٢-	فهرس الموضوعات	٧٧٦٣

تم بحمد الله